﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾

[يونس: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مناسبةُ طلبِ قـرآنٍ مُـغـيِّرٍ؛ لبيان أنّ الأصنامَ الباطلةَ لا تُقدِّمُ ولا تُؤخِّرُ

لَمّا ذكرَ بيانُ الله أنَّ القومَ التمَسوا منَ الرَّسولِ ﷺ قرآنًا غيرَ هذا القرآنِ أو تبديلَه؛ لأنَّ هذا القرآنَ مُشتَمِلٌ على شَتْمِ الأصنامِ الَّتي جَعلوها آلهةً لأنفُسِهم، فلهذا السَّببِ ذكرَ الله تعالى في هذا الموضعِ ما يدُلُّ على قُبْحِ عبادةِ الأصنامِ، وأنَّ تحقيرَها والاستخفافَ بها أمرٌ حقٌّ وطريقٌ مُتيَقَّنٌ، فلذلكَ نبَّهَ هنا على أنَّ ما اتَّخذوه شفعاءَ عندَ الله فاسدٌ، وذلكَ بأنَّ تلكَ الآلهةَ المزيَّفةَ لا تَضرُّهم ولا تنفعُهم؛ بل زادَ على ذلك تَسْفيهَه لهم وسُخْريتَه بهم، إذ كيف يُعقلُ وجودُ تلك الآلهةِ، والله ﷻ لا يعلمُها؟!! والله خالقُ السَّماواتِ والأرضِ، وهو أعلمُ بما فيهما، وحيث لم يكن معلومًا لله، دلَّ ذلكَ على عدمِ وجودِها، ولذلكَ جاءَ تنزيهُ الله تعالى عن أباطيلِهم تلكَ، وشِركِهمُ الواضحِ الفاضحِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾: العُبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّلِ، والعبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا من له غايةُ الإفضالِ، وهو الله تعالى؛ ولهذا قالَ: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]. والعبادة: الطّاعة، والنّاسُ كلُّهم عبادٌ لله؛ بلِ الأشياءُ كلُّها كذلك، بالتَّسخيرِ أو

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/228، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/90 - 91.

بالاختيار. وعَبَدَ يعبُدُ عِبادَةً، فلا يُقالُ إلّا لِمن يعبُدُ الله تعالى، وتعبَّدَ يتَعَبَّدُ تَعَبُّدًا، ويُقالُ للمسلمين: عُبّادٌ يعبُدونَ الله تعالى، ويُقالُ للمشركين: عَبَدَةُ الطّاغوتِ والأوثان[1]، وهم المرادون بقولِه هنا: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾.

2) ﴿لَا يَضُرُّهُمۡ﴾: الضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في نفسِه لقلَّةِ العلمِ والفَضْلِ والعِفَّةِ، وإمّا في بَدَنِه لعدمِ جارحةٍ ونَقْصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاهٍ، قالَ تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ [الأنبياء: 84]. يُقالُ: ضرَّهُ يضرُّه ضُرًّا: جَلَبَ إليه ضُرًّا، وهو ضدُّ النَّفْع. وقولُه هنا: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾، المرادُ به: الضُّرُّ والنَّفعُ اللّذان بالقَصدِ والإرادةِ، تنبيهًا أنَّه لا يَقصِدُ في ذلكَ ضَرًّا ولا نفعًا لكونِه جمادًا[2].

3) ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾: النَّفعُ: ما يُستعانُ به في الوصولِ إلى الخَيْرات، وما يُتوصَّلُ به إلى الخَيْرِ فهو خَيْرٌ، فالنَّفعُ خَيْرٌ، وضِدُّه الضُّرُّ، يقال: نَفَعْتُهُ بكذا فانْتَفَعَ به، والاسمُ المنفعة. ومنه قولُه هنا في الآية: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾، على الوجهِ الَّذي تقدَّم آنفًا بقَصدِ إرادةِ الضُّرِّ والنَّفعِ من تلكَ الأصنامِ الصَّمّاء[3].

4) ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾: شفع: الشِّينُ والفاءُ والعَينُ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مقارنةِ الشَّيئَين، من ذلكَ الشَّفعُ خِلافُ الوَتْرِ. ومن الشَّفاعة: شَفَعَ فلانٌ لفلان: إذا جاءَ ثانيَهُ مُلْتمِسًا مَطْلَبَه ومعينًا له، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في انضمامِ مَن هو أعلى حرمَةً ومرتبةً إلى مَنْ هو أَدنَى، ومنه الشَّفاعةُ في القيامة، قالَ تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ [مريم: 87][4]، وقولُه تعالى هنا: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنَّ تلكَ الآلهةَ تنفعُهم شفاعتُها، فيلتمسونَ عونَهم عندَ الله فلا يعذِّبُهم بذنوبهم[5].

5) ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾: أصلُ النَّبَأِ الإتيانُ من مكانٍ إلى مكان. والنَّبأُ: خَبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غَلَبةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخَبَرِ في الأصلِ نَبَأٌ حتَّى يتضمَّنَ ذلك، وحقُّ الخَبَرِ الَّذي يُقالُ فيه نَبَأٌ أن يتعرَّى عنِ الكذِبِ، كالتَّواتر، وخبرِ الله تعالى، وخَبَرِ النَّبيِّ ﷺ ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عبد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ضرر)، والرّاغب، المفردات: (ضر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (نفع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شفع).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/374، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/607.

ولتضمُّنِ النَّبَأِ معنَى الخبرِ يُقالُ: أَنْبأْتُه بكذا، كقولكَ: أخبرتُه بكذا، ولِتضمُّنِه معنَى العلمِ قيل: أَنْبأْتُه كذا، كقولك: أعلمتُه كذا، قالَ اللّه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2][1]. وقولُه تعالى هنا: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أَتُخبرونَ اللّه بكونِهم شفعاءَ عندَه هذا الخبرَ العظيمَ الَّذي لا يعلمُه، وأنتم تعلمونه[2]؟

6) ﴿يُشْرِكُونَ﴾: الشِّرْكَةُ والمُشارَكَةُ: خلطُ المِلْكَيْنِ، وقيل: هو أنْ يوجَدَ شيءٌ لاثنَينِ فصاعدًا، عَيْنًا كانَ ذلكَ الشَّيءُ أو معنًى، كمشاركةِ الإنسانِ والفَرَسِ في الحيوانيَّةِ. يُقال: شَرِكْتُهُ، وشارَكْتُهُ، وتَشارَكوا، واشْتَرَكوا، وأَشْرَكْتُهُ في كذا، قالَ تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢﴾ [طه: 32]. وجمعُ الشَّريك: شُركاء، قالَ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: 111]، والشِّركُ في الدِّين ضَرْبان: أحدُهما: الشِّركُ العظيمُ، وهو إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، وذلك أَعظمُ كُفْرٍ، قالَ تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ [النِّساء: 116]. وهنا في الآية: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨﴾؛ أي: في اتِّخاذِ الأصنامِ شفعاءَ لهم عندَ اللّه. والثّاني: الشِّركُ الصَّغير، وهو مراعاةُ غيرِ اللّه معه في بعضِ الأمورِ، وهو الرِّياءُ والنِّفاقُ المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۖ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠﴾ [الأعراف: 190][3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُنكرُ اللّه تعالى على المشركينَ الَّذين عَبَدوا مع اللّه غيرَه، ظانِّينَ أنَّ تلكَ الآلهةَ تَنفعُهم شفاعتُها عندَ اللّه، فأخبرَ تعالى أنَّها لا تَضرُّ ولا تَنْفَعُ، ولا تملكُ شيئًا، ولا يقعُ شيءٌ ممّا يزعُمونَ فيها، ولا يكونُ هذا أبدًا، ولهذا نَعَى عليهم فقالَ: أَتُخبِّرونَ اللّه بما لا يكونُ في

الإنكارُ على عبادةِ المشركينَ للأصنام، وأنّهم لا شفاعةَ لهم عندَ الخالقِ العلّامِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نبأ).
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/608.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرك).

السَّماواتِ ولا في الأرضِ؟! فنزَّه نفسَهُ الكريمةَ تعالى عن شركِهم وكُفرِهم وتَماديهم في الضَّلالة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ بين الاستئنافِ والعطفِ والحالِ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

بيانُ جناياتِ المشركين في عبادتِهم لغير ربِّ العالمين

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ استئنافيَّةٌ، وجملتُها مُستأنَفةٌ لحكايةِ جنايةٍ أُخرى من جناياتِهم السّابقةِ من طلبِهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾، وافترائِهم على اللّه كذبًا والتَّكذيبِ بآياتِه، بيانًا لشدَّةِ تعنُّتِهم وكُفرِهم حتَّى أنَّهم يعبُدونَ من دونِ اللّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، فأعقبَ تلك الجناياتِ جنايةً أخرى تشنيعًا عليهم.

ويحتملُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً لقوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ على الجملةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾، وهي عطفُ قِصَّةٍ على قِصَّة، فهذه قِصَّةٌ أُخرى من قَصصِ كُفرِهم أنْ قالوا: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ حين تُتْلَى عليهم آياتُ القرآن، ومن كُفرِهم أنَّهم يعبدونَ الأصنامَ، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، أو يكون العطفُ على جملةِ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ فإنَّ عبادتَهم ما لا يضُرُّهم ولا ينفَعُهم من الافتراء[2]، ويحتملُ في الواو وجهٌ ثالثٌ بأن تكون حاليّةً من قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: قالوا ذلك حالَ كونِهم عابدينَ من دونِ اللّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم[3]، وكلُّ هذه الوجوهِ مُحتملَةٌ تؤدّي دورَها في البيانِ المعجزِ، كما جرَت عادةُ القرآنِ في التّوسّعِ في التّعبيرِ.

استمرارُ المشركينَ في ضلالتِهم القائمة؛ لتكريس ممارساتِهم الآثمةِ

سرُّ تصديرِ الآيةِ بالفعلِ المضارعِ ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالفعل المضارعِ في قوله تعالى:

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/374.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124 - 125، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/220.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/90، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.

﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ للدّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ؛ استحضارًا للحالةِ العجيبةِ من استمرارِهم على عبادتِها؛ أي: عَبَدوا الأصنامَ ويعبُدونَها، تعجيبًا من تَصميمِهم على ضلالِهم، ومن قولِهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فاعْترَفوا بأنَّ المتَصَرِّفَ هو اللّه[1].

استعمالُ الضَّميرِ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ ذكرَ الضَّميرَ العائدَ على المشركينَ دونَ الاسمِ الظّاهرِ لدلالةِ السِّياقِ عليه ممّا تقدَّمَ، ولازدرائِهم وعدمِ الاهتمامِ بهم، فهم أقلُّ شأنًا من أن يُذكَروا باسمِهمُ الظّاهرِ؛ وذلك لأنّهم بعبادتِهم لغيرِ اللّه قد خرجوا عن فطرةِ اللّه الّتي فطرَ النّاسَ عليها، وغرقوا في حمأةِ الشّركِ، وعبدوا مَن لا يملكُ لهم نفعًا ولا ضرًّا، وقد أغفلَهم السّياقُ اسمًا ظاهرًا، وألمحَ لهم بالضّميرِ المتّصلِ؛ ازدراءً لأفعالِهم المشينةِ، وعبادتِهم الذّميمةِ، وذلك مَلمَحٌ منَ البيانِ المُبين، الّذي يجلّي المعنى في استعمالِ الضّميرِ عوضَ الاسمِ الظّاهرِ.

معرفةُ عَوْدِ الضَّميرِ منَ السِّياقِ، وأصحابُه أقلُّ شأنًا من أن يُذكَروا

علّةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ: ﴿مِن دُونِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على الفعلِ ومفعولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾؛ تنبيهًا على أنّ ما كانَ من دونِ اللّه، بعدمِ مالكيَّتِه للضُّرِّ والنَّفعِ والتَّأثيرِ بضُرٍّ أو نفعٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّ الحقَّ هو عبادةُ اللّه وحدَه؛ لأنَّه هو الَّذي يضرُّ وينفعُ، واعتقادُ الضُّرِّ والنَّفعِ في غيرِه كفرٌ باللّه تعالى، وهذا ما كانَ عليه المشركون، فأرادَ بيانُ اللّه أنْ يلفتَ انتباهَهم إلى ضرورةِ عبادةِ اللّه وحدَه، ونَبْذِ عبادةِ الآلهةِ المزيَّفةِ الَّتي لا تملكُ الضُّرَّ والنَّفعَ لِنفسِها فضلًا عن أن تملكَهُ لهم[2]، فتقديمُ شبهِ الجملةِ

تقديمُ شبهِ الجملةِ لأهمّيَّةِ المقدَّم، ودوره في السّياق

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.
(2) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 101 - 107.

المتضمّنةِ لفظَ الجلالة أبلغُ في بيان الاهتمامِ باستحقاق العبادةِ قبلَ الاهتمامِ بتحقيق النّفعِ والضّرِّ؛ حيث إنّ كونَ العبادةِ حاصلةً من دون اللّه فهو أشدُّ خطرًا من كونه نافعًا أو ضارًّا، فالأصلُ هو تجريدُ العبادةِ للّه تعالى حتّى في حالةِ تحقُّقِ الضّرِّ والنّفعِ من غيرِه على سبيلِ الافتراضِ.

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ باسم الجلالةِ: ﴿ٱللَّهِ﴾:

جلالُ الله تعالى يثيرُ التّعجُّبَ أن يُشرَكَ به

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظِ الجلالةِ، وكان السّياقُ يحتملُ الإضمارَ؛ فقد سبقَ ذكرُهُ ﷻ حيث قال: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فلم يقُل: (ويعبدون من دونه)؛ إظهارًا لقبحِ عبادتِهم، فإنّ اسمَ الجلالةِ حيثما عُبِّرَ به كان لغرض تعظيمِ مضمونِ السّياقِ بوجهٍ ما.

سرُّ استعمالِ الاسمِ الموصولِ: ﴿مَا﴾:

التّنبيهُ على أنَّ مَن عَبَدَ غيرَ اللهِ فهو مُشركٌ خاطِئٌ

استعملَ النّظمُ الكريمُ اسمَ الموصولِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ صفةَ هذه الأصنامِ - باعتبارِها جَمادًا - أنَّها لا تقدِرُ على ضرٍّ ولا نَفْعٍ، فإنْ عبَدوها لم تنفعْهم، وإنْ تركوا عبادتَها لم تضرُّهم، ومن حقِّ المعبودِ أن يكونَ مُثيبًا على الطّاعة، مُعاقِبًا على المعصية، وفي هذا تنبيهٌ وتأكيدٌ على أنَّ مَنْ عبدَها فهو خاطِئٌ في عبادةِ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ[1].

نكتةُ إفرادِ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾، وجمعِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾:

(ما) الموصولة عائدةٌ إلى الأصنام، وبيانُ دلالتِها في السّياق

﴿مَا﴾ الموصولة في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾ راجعةٌ إلى الأصنام؛ ولذلكَ فإنَّ البيانَ الإلهيَّ راعَى لفظَها، فأفردَ في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾، وراعَى معناها في قولِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ فجمعَ[2]، وهم في عبادتِهم لغير اللّه يعبدون ما لا نفعَ له يُرتجَى، ولا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/125.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/220.

ضررَ منه يُخشَى؛ أي: ما ليس من شأنِه الضّرُّ والنّفعُ منَ الأصنام الّتي هي جمادات، وتبريرُ عبادة الأصنامِ الآلهةِ أنّهم شفعاءُ عند اللّه، "قيل إنّهم كانوا يعتقدون أنّ المُتولِّي لكلّ إقليم روحٌ معينٌ من أرواح الأفلاكِ، فعيّنوا لذلك الرّوحِ صنمًا مُعَيَّنًا منَ الأصنام، واشتغلوا بعبادتِه، ومقصودُهم ذلك الرّوحُ، ثمّ اعتقدوا أنّ ذلك الرّوحَ يكونُ عندَ الإلهِ الأعظمِ مُشتَغِلاً بعبوديَّتِه"[1].

فائدةُ صلةِ الموصولِ في: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾:

تحقيرُ رأيِ المشركين من رجاءِ شفاعةِ الأصنامِ يومَ الدّينِ

آثَر النّظمُ الكريمُ ذكرَ اسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾، لِما تُؤذِنُ به صلةُ الموصولِ منَ التّنبيهِ على أنّهم مُخطِئونَ في عبادةِ مالا يضُرُّ ولا ينفعُ، وفيه تمهيدٌ لطيفٌ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لتحقيرِ رأيهم من رجاءِ الشّفاعةِ من تلكَ الأصنام، فإنّها لا تقدرُ على ضَرٍّ ولا نَفعٍ في الدُّنيا فهي أضعفُ مَقدِرَةً في الآخرة[2]. وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾قد يكونُ في إصلاحِ معاشِهم في الدُّنيا لأنّهم لا يقرّون بالبعث[3].

نكتةُ تقديمِ نفي الضُّرِّ على نفي النّفعِ:

الأصنامُ المعبودةُ لا قدرةَ لها على جلبِ نفعٍ، ولا دفعِ ضررٍ

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذكرَ الضُّرِّ على النّفعِ في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ ذلك أنّ هذه الأصنامَ المعبودةَ لا قدرةَ لها على جلب نفعٍ فيُرتجَى نفعُه، ولا دفعِ ضررٍ فتُخشَى غوائلُه، ويُخافُ بطشُه، ولمّا كانَ السِّياقُ للتّهديدِ والتّخويف، قدّمَ الضُّرَّ، وفيه تنبيهٌ لهم على أنّهم مغمورونَ في نِعَمِه الّتي لا قدرةَ لغيرِه على منعِ شيءٍ منها، فعليهم أن يُقيِّدوها بالشُّكرِ، فقال: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ أصلًا منَ الأصنامِ وغيرِها[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/132.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/125.
(3) الواحديّ، الوجيز، ص: 492.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/91.

وقد كان سَدَنتُها يُخوِّفونَ عَبَدَتَها، بأنَّها تُلحِقُ بهم وبصبيانِهمُ الضُّرَّ، فأُريدَ الابتداءُ بِنَفي الضُّرِّ لإزالةِ أوهامِ المشركينَ في ذلكَ الصّادَّةِ لكثيرٍ منهم عن نَبْذِ عبادةِ الأصنامِ[1]، ويمكنُ أن يكونَ هذا التَّقديمُ لنَفي الضَّررِ؛ لأنَّ أحكامَ العبادةِ دفعُ الضَّررِ الَّذي هو أوَّلُ المنافعِ، والعبادةُ أمرٌ حادثٌ مسبوقٌ بالعدَمِ الَّذي هو مَظِنَّةُ الضَّررِ، فحيثُ لم تقْدِرِ الأصنامُ على الضَّررِ لم يوجَدْ لإحداثِ العبادةِ سَبَبٌ[2].

دَلالةُ اتِّصالِ ضمائرِ الجمعِ بالأفعالِ: ﴿يَضُرُّهُمْ﴾، ﴿يَنفَعُهُمْ﴾:

المخلوقاتُ من غيرِ اللهِ لا تأثيرَ لها بضُرٍّ يقرعُ أو نفعٍ يطرأُ

جاءتِ الضَّمائرُ المتَّصلةُ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ للتَّحذيرِ من هَوْلِ ما يتَّخِذُه النّاسُ من اختراعاتٍ في حياتِهم، يَعتقدونَ فيها الضُّرَّ والنَّفعَ، مجرَّدةً عن قدرةِ اللهِ فيها وقَدَرِه في إيقاعِ الضُّرِّ والنَّفعِ بأمرِه ﷻ، بأنَّ لها تأثيرًا ذاتيًّا قويًّا في دفعِ الضُّرِّ وجَلْبِ النَّفعِ، وهذا ما كانَ عليه المشركون، حيث صنَعوا أصنامًا عبَدوها من دونِ اللهِ، وأَضفَوا عليها صفةَ القداسةِ والإلهيَّةِ والتَّأثيرِ على النّاس، حتَّى أنّ سَدَنتَها كانوا يُخوِّفونَ عَبَدَتها بأنَّها تُلحِقُ بهم وبصبيانِهم الضُّرَّ، كما قالتِ امرأةُ طُفيلِ بن عَمرٍو الدّوسيِّ حين أخبرَها أنَّه أسلمَ ودَعاها إلى أن تُسلِمَ فقالَت: "أما تَخشى على الصِّبيَةِ من ذي الشَّرَى"، وهو صنمٌ كان يعبُده بنو دَوْس، كانَ بين مكَّةَ والطّائفِ، وما هذه الأصنامُ إلّا مجرَّدُ جماداتٍ غيرِ عاقلةٍ من صناعةِ البشرِ، ولكنَّهم لمّا اعتقدوا فيها التَّأثيرَ بدفعِ الضُّرِّ وجَلْبِ النَّفعِ، وهي لا تملِكُ لنفسِها ولا لغيرِها ضَرّا ولا نَفعًا، وقعوا في الشِّركِ الجليِّ والكفرِ الظّاهرِ باللهِ ﷻ، وظلموا أنفُسَهم فخَسِروا الدُّنيا والآخرة[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.

دَلالةُ (لا) النّافية:

عبادةُ مَن نُفيَ عنه النّفعُ والضّرُّ دليلٌ على سفاهةِ مَن يعبدُه

وردَ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ بإعادةِ حرف (لا) مع العطفِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ وذلكَ لتأكيدِ النَّفي السّابقِ في ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾، فهم إنْ عَبَدوها لم تنفعْهم كما أنَّهم إنْ تركوا عبادتَها لم تضرَّهم، فَمَن لا يملِكُ دفعَ الضُّرِّ لا يملِكُ جَلْبَ النَّفعِ، ولكن هو التَّأكيدُ كذلكَ في إيغالِهم في البُعدِ عنِ الحقِّ، وسفاهةِ عقولِهم وعَدَمِ إدراكِها[1].

نكتةُ نَفي صفتَي النَّفعِ والضُّرِّ على المعبودينَ من دونِ الله:

مَن لا يملكُ النَّفعَ والضَّرَّ على وجه الحقيقةِ لا يستحقُّ أن يُعبَدَ

في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ بيانٌ أنَّ عبادتَهم للأصنامِ من دونِ اللّه عبادةٌ لِمن لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، وهو منَ الافتراءِ الَّذي تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ، فإنَّ بيانَ اللّه تعالى أرادَ أنْ ينبِّهَهم على أنَّهم مُخطئونَ في عبادةِ ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، وفيه كذلك ازْدراءٌ بعبادةِ مَن لا يملكُ الضُّرَّ والنَّفعَ، حيث إنَّ الضُّرَّ والنَّفعَ قادحٌ في العبادةِ أصلًا[2]، وهذه الأوثانُ جمادٌ تتّصفُ بأنّها لا تقدرُ على نفعٍ ولا ضُرٍّ، فإن عَبدوها لم تنفعْهم، وإنْ تركوا عبادتَها لم تضرَّهم، ومن حقِّ المعبودِ أنْ يكونَ مُثيبًا على الطّاعةِ مُعاقِبًا على المعصيةِ، وهذه من خصائصِ المعبودِ بحقٍّ أن يكونَ مُثيبًا ومُعاقِبًا، ويقابلُها ما هو من خصائصِ العابدِ، وهو أن يكون مُثابًا أو مُعاقَبًا[3].

دَلالةُ ﴿مِن﴾:

كانَ المشركونَ بلا عقولٍ في عبادتهم الأصنامَ من دون الله

في قولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دلَّتْ ﴿مِن﴾ البيانيَّةُ على أنَّهم كانوا يَعبدونَ الأصنامَ، ولا يعبُدونَ اللّه، حيث إنَّ قولَه: ﴿مِن دُونِ﴾

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230.

مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾[1] مِنۡ دونِ اللّه؛ أي: غيره، وَيَقولونَ عن هؤُلاءِ الأوثان شُفَعاؤُنا تشفعُ لنا فيما يهمُّنا من أمور الدّنيا وفي - إن يكن بعثٌ - ولكنّها بحكم عبادتِها من دون اللّه، فعبادتُها طارئةٌ مُحدثةٌ، وعبادةُ اللّه قديمةٌ أصيلةٌ، يؤيّدها الإيمانُ، وتسندُها الفطرةُ، وتنسجمُ مع مقتضياتِ التّوحيدِ، ومتطلّباتِ الدّينِ الحقِّ الّذي يُعبَدُ به اللّه، ولا تُعبَدُ به الأصنامُ من دون اللّه.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿دُونِ﴾:

جعلُ عبادةِ اللّه قرينًا لعبادةِ من دونه منَ الضّلالِ المبينِ

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾، ومَحَلُّهُ النَّصبُ على الحاليَّةِ من فاعِله؛ أي: مُتجاوزينَ اللّه ﷻ، لا بمعنَى تركِ عبادتِه بالكُلِّيَّة؛ بل بمعنَى عدمِ الاكتفاءِ بها، وجعلِها قَرينًا لعبادةِ الأصنامِ، كما يُفصِحُ عنه النَّظمُ الكريمُ[2].

دَلالةُ العطفِ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

مَنْ عَبَدَ ما لا يضرُّه ولا ينفعُه خسرَ الدّنيا والآخرة

دلَّ عطفُ جملةِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على جملةِ ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ على أنَّ قولَهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ من لوازمِ ومقتضياتِ عبادتِهم لغير اللّه، وكما أنَّهم يعبُدونَ من دونِ اللّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، فهم كذلكَ يقولونَ عن تلكَ الأصنامِ أنَّهم شفعاءُ لهم عندَ اللّه، وفي هذا وذاكَ تحقيرٌ لهم ولعبادتِهم لتلكَ الآلهةِ المزيَّفةِ الَّتي لا تضرُّ ولا تنفعُ، وتحقيرُ رأيِهم من رجاءِ الشَّفاعةِ من تلكَ الأصنامِ، فإنَّها لَمّا لا تَقدِرُ على ضُرٍّ ولا نَفعٍ في الدُّنيا لعابِديها فهي عن شفاعتِها لهم لَأضعَف[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.

دلالةُ استعمالِ الأفعالِ المضارعةِ:

المـشـركـونَ لا يفتأون مُستمرِّينَ فـي ضـلالِـهـم وأوهامِهم

وُرودُ الأفعالِ المضارعةِ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ﴾ في سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ، وفي حديثِه عنِ المشركين الَّذين ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، دليلٌ جَليٌّ على استمرارِهم على عبادةِ تلكَ الأصنامِ الَّتي هي مستمرَّةٌ كذلكَ في عدمِ قُدرتِها على ضُرِّهم ونفعِهم، وهم مستمرّون في قولِهم أنَّها تشفعُ لهم عند الله، وفي هذه الاستمراريَّةِ لتلكَ المشائنِ تعجيبٌ وأيُّ تعجيبٍ، من تَصميمِهم على ضلالِهم في عبادةِ الأصنامِ، وانجرافِهم وراءَ أوهامِ شفاعتِها لهم، فهم مُستمرّون في تخبُّطِهم في كفرِهم وعنادِهم، غارقونَ في مستنقعِ التِّيهِ والضَّلالِ، تقودُهم أحلامُهم إلى سرابٍ بقيعةٍ لا وجودَ فيها لشيءٍ ممّا يتوهَّمون[1].

سرُّ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للمعبوداتِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

تبكيتُ المشركين بأنَّ معبوداتِهم لا قيمةَ لها ولا شَفاعةَ

اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منَ المعارف، وقولُهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ تعريفٌ منهم بشفائِعهم واستنصارٌ بهم، لكنَّهم لمّا عرَّفوا بشفائِعهم عرَّفوا بغيرِ مُعرَّفٍ، فكانَ ذلك تبكيتًا لهم، وردًّا عليهم في دَعواهم أنَّها تشفعُ لهم عندَ الله، إذْ كيف يدَّعون شفعاءَ لا تضرُّ ولا تنفعُ، وبالتّالي فإنَّ تعريفَهم بشفعائِهم لا اعتبارَ له ولا قيمةَ[2].

سرُّ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على القريبِ في: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

لا يأمنُ الكافرون إلّا بآلهةٍ ظاهرةٍ لمرآهُم

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على القربِ في قولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّهم يشاهدونَهم بأعينِهم، إشارةً إلى أنّهم لا يؤمنونَ إلّا بما يشاهدون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/125.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/27.

دلالةُ الإضافةِ: ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾:

اختصَّ شفعاؤُهم بهم ظنًّا منهم بحظوتهم

عبّر النّظمُ الكريمُ حكايةً عنهم بإضافة الشّفعاءِ إلى ضمير المُتكلِّمين في قوله جلّ ذكرُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾؛ للدّلالة على أنّهم شفعاؤُهم الّذين يختصون بهم، لا يشفعونَ لغيرهم، وإنّما ذكرَ ذلك من جملةِ أقوالِهم الّتي قالوها؛ لأنّه منَ الأقوالِ الآثمةِ الّتي استوجبوا بها أن يكونوا منَ الظّالمين.

دلالةُ التّقييدِ بالعنديّةِ: ﴿عِندَ﴾:

لا تزكيةَ أعلى منَ الانتسابِ إلى الله تعالى

قيّدَ النّظمُ الجليلُ فيما حكاه من قولهم تقييدَ الشّفعاءِ بكونهم شفعاءَ كائنين عند الله تعالى، فقال جلّ شأنه: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وأرادوا بذلك تزكيةَ الشّفعاءِ، رادّين بذلك بحسب ظنّهم على النّبيّ ﷺ أنّ الله الّذي أرسلَكَ يا محمد؛ هؤلاء شفعاؤنا عنده، فلا بأسَ علينا، وهذا إقرارٌ منهم بأنّ شفعاءَهُم الّذين يعبدونَهم يرجعونَ إلى الله تعالى، وهذا يبيّنُ مدى ضلالِهم؛ إذ ينسبون إلى الله تعالى ما ينقضُه بوحيه إلى أنبيائِه.

دلالةُ فصلِ الجملةِ في: ﴿قُلْ﴾:

الاستشفاعُ بمَن لا قدرةَ له على الشّفاعة طلبٌ من غير مُطيقٍ

لَما حكى الله تعالى عنِ المشركينَ قولَهم عنِ الأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تقريرًا منهم لهم واعتمادًا على شفاعتِهم، ردَّ عليهم بقولِه: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾، إذ كيف تتَّخذونَ شفعاءَ لكم لا وجودَ لهم أصلًا كآلهة، فهذا تناقضٌ عجيبٌ ومُحالٌ غيرُ صحيحٍ ولا سَديدٍ[1].

دَلالةُ أسلوبِ الاستفهامِ في: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾:

الاستفهامُ تقريعٌ للمشركينَ الَّذين يدَّعونَ المُحال

دلَّ الاستفهامُ في قولِه: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ بما يدَّعونَه منَ المُحالِ في اتِّخاذِ شفعاءَ لهم من دونِ الله، لا يعلمُهم الله،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

الَّذي لا يكاد يدخلُ تحتَ الصِّحةِ والإمكانِ[1]، والمعنى: "أتخبرون بما لا يَعْلَمُ، وهو أنّ له شريكًا، إذ لو كان له شريكٌ لَعَلِمهُ، إذ لا يخفى عليه شيءٌ سُبْحانَهُ، تنزيهًا له عَمّا يُشْرِكونَ عن إشراكِهم"[2].

غرضُ اجتماعِ ﴿قُلْ﴾ وهمزةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ﴾:

بُـطـلانُ مـا لم يـعـلـمِ الـلـه وقوعَه؛ لانتفائِه عقيدةً وشرعًا

أمرَ اللّه ﷻ نبيَّه ﷺ أن يَردَّ عليهم بتهكُّم بقولِه: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ بأنَّهم قد أَخبروا اللّه بأنَّ لهم شفعاءَ لهم عندَه، ومعنَى ذلك: أنَّ هذا لَمّا كان شيئًا اخترعوه، وهو غيرُ واقعٍ جعلَ اختراعَه بمنزلةِ أنَّهم أَعلموا اللّه به، وكان لا يعلمُه، فصارَ ذلكَ كنايةً عن بُطلانِه؛ لأنَّ ما لم يعلمِ اللّه وقوعَه فهو مُنْتَفٍ، فاللّه تعالى هو العالمُ المحيطُ بجميعِ المعلوماتِ؛ لأنَّ الشَّيءَ ما يُعلَمُ به ويُخبرُ عنه، فكانَ خبرًا ليس له مُخبرٌ عنه، فقولُه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ تهكُّمٌ بهم وبما ادَّعوهُ من المُحالِ الَّذي هو شفاعةُ الأصنامِ[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾:

سـيرتُـهـم وديدنُهم التّقوّلُ على اللّه تعالى ما لا علمَ لهم به

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ الدّالّ على التّجدّدِ والدّوامِ؛ للدّلالة على أنْ بيّن أنّ سيرتَهم وشأنَ دينِهم هو التّقوّلُ على اللّه بتلك الأقوال العظيمة، تنويهًا على جرأتِهم في الافتراء، ودأبِهم على ذلك، فهم لا ينقطعونَ عن ذلك.

بلاغةُ الإظهارِ: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾:

أشـنـعُ الافـتـراءِ أن يـتـعـالى الـكـاذبُ ليخبرَ اللّه شيئًا، وهو الـعـلـيـمُ بـكـلِّ شيءٍ

آثرَ النّظمُ الكريمُ تكرارَ لفظِ الجلالةِ بالإظهار مَوضِعَ الإضمارِ حيث قالَ جلّ شأنُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾، ولم يقُل: (عند

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

(2) الزّحيلي، التّفسير المنير: 11/132.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف، ص: 230، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

اللّه، قل أتنبّئونه)؛ وذلك تنويهًا بشناعةِ ما اقترفوه، فهم لم يُنبِئوا من يُتصوَّرُ في حقِّه أنّه يحتاج إلى الإنباءِ، بل إنّهم يتعالون بغرورِهم لإنباءِ اللّه تعالى عن كيفيّةِ العبادةِ، وهذا بلغَ منَ الشّناعةِ أعلاها، فكانَ التّعبيرُ بلفظ الجلالة تهويلًا لِما قاموا به.

دلالةُ النّفي: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾:

دلَّ النّفيُ في النّظمِ الكريمِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ نفيَ وجودِ ما لا يعلمُهُ اللّه تعالى، وبيانَ أنَّه لا وجودَ له البتَّة، وذلك لأنَّه لو كان مَوجودًا لكانَ معلومًا للّه، وحيثُ لم يكنْ مَعلومًا للّه تعالى وجَبَ أنْ لا يكونَ مَوجودًا، وهكذا أمرُ أولئك الشُّفعاءِ الَّذين اخترعوا وجودَهم، وجعلوا وجودَهم بمنزلةِ أنَّهم أعلموا اللّه به، وكانَ لا يعلَمُهُ، فصارَ ذلكَ كنايةً عن بُطلانِه وعدمِ وجودِه؛ لأنَّ ما لم يَعلَمِ اللّه وُقوعَهُ فهو مُنتَفٍ، وبالتّالي فإنَّ أولئكَ الشُّفعاءَ المزعومين لا وجودَ لهم أَصلًا[1].

ما لم يعلمِ اللّه وقوعَه فهو مُنتَفٍ عقلًا وواقعًا

دلالةُ تعليقِ الفعلِ بحرف الجرِّ: ﴿يَعْلَمُ فِى﴾:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جاء الفعلُ ﴿يَعْلَمُ﴾ مُتعلِّقًا بحرف الجرِّ ﴿فِى﴾؛ للدّلالة على العلم بالجزئيّات، وهذا أبلغُ في بيان العلمِ.

بيانُ كونِ اللّه تعالى عالِمًا بالجزئيّات أشنعُ في بيانِ جهلِ الكافرين بسعةِ علمِهِ

علّةُ تكريرِ النّافي (لا) في: ﴿وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

لَمّا كانَ الحالُ مقتضيًا لغايةِ الإيضاحِ - كما تقدَّم آنفًا - كرَّرَ النّظمُ الكريمُ حرفَ النّفي تصريحًا فقالَ: ﴿وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وذلكَ لأمرين: أحدُهما: زيادةُ التّنصيصِ على النّفي، والتّأكيدُ له. والثّاني: الاستخفافُ بعقولِ المشركينَ ممّا لا يقدِرونَ على الطّعنِ فيه بوجهِ ما يُخجِلُ الجَمادَ، فإنَّ ما لا يكونُ مَعلومًا للّه لا يكونُ له

تكريرُ النّافي لتأكيدِ النّفي، والاستخفافِ بعقولِ المشركين

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/227، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/126.

وجودٌ أصلًا، فلا نَفْيَ أَبْلَغُ من هذا، كما أنَّك إذا بالغْتَ في نَفْي شيءٍ عن نفسِكَ تقولُ: هذا شيءٌ ما عَلِمَه اللّه منِّي[1].

دَلالةُ ذكرِ (السَّماواتِ والأرضِ) في الآيةِ الكريمةِ:

غـرضُ تعميمِ الأمكنةِ إيضاحٌ بعلمِ اللهِ بكلِّ شيءٍ

المقصودُ من ذكرِ السَّماواتِ والأرضِ في قولِه ﷻ: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تعميمُ الأمكنةِ، كما هو استعمالُ الجمعِ بين المتقابلاتِ، مثلَ المشرقِ والمغربِ، وهذا غايةُ الإيضاحِ في أنَّ اللّه تعالى لا يفوتُه علمُ شيءٍ في أيِّ مكانٍ كان، فهو خالقُ كلِّ شيءٍ[2].

بلاغةُ الفصلِ في: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

ينزّهُ اللهُ تعالى عن سوءِ ظنِّهم وجهالةِ معتقدِهم

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ مُستأنَفةٌ؛ لأنّها جاءَت لغرضِ إنشاءِ تنزيهٍ للّه ﷻ، فهي مُنقطعةٌ عنِ الَّتي قبلَها في التّركيب والمعنى، فلذلك فُصِلَت[3]، كما أنّ فيه تنبيهًا على شناعةِ ما دلَّ عليه الكلامُ السّابقُ، وأنّه ممّا لا يليقُ ذكرُهُ إلّا على سبيل الاحتجاجِ والإنكارِ.

علَّةُ حذفِ فعلِ المفعولِ المطلَقِ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

تأكيدُ تنزيهِ اللهِ ﷻ عن أنْ يخفَى عن علمِهِ شيءٌ

جاءَتْ جملةُ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ إنشاءَ تنزيهٍ للّه ﷻ، فهي مُنقطعةٌ عنِ الَّتي قبلَها، فلذلك فُصِلَت، وحُذِف عاملُ المفعولِ المطلَقِ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾، وهو الفعلُ (أُسبِّحُ) فجاءَ المصدرُ وهو المفعولُ المطلَقُ (سُبحانَ) بدلًا عنه، حيث لا يجوزُ الجمعُ بين البَدَلِ والمبدَلِ عنه، وقد جاءَ هنا قبلَه ما يدلُّ عليه منَ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ بقولِه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وقد وقعَ بعدَ جملةٍ لا تحتملُ غيرَه، فكانَ مؤكِّدًا لنَفسِه، ومُؤكِّدًا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

لمفهومِ الإنكارِ لمضمونِ الجملةِ الَّتي قبلَه، فجاءَ السِّياقُ في غايةِ التَّأكيدِ لتنزيهِ اللهِ عمّا لا يليقُ به ﷻ من أنْ يَنِدَّ عن علمِه شيءٌ في السَّماواتِ والأرضِ[1].

دلالةُ العطفِ في ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾:

تأكيدُ تنزّهِ اللهِ تعالى عن سوءِ ظنونِهم، فهو المتعالي رفيعُ الدّرجاتِ

عطفَ الوصفَ بالارتفاعِ الّذي أرادَ به التّعالي عن كلِّ نقصانٍ، والشّركُ لا يليقُ باللهِ تعالى لكونه الخالقَ لهذا الكونِ، فهو رفيعُ الدّرجاتِ تعالى أن يوصَفَ بأنّ له شريكًا، وكان هذا المعنى مُقارِبًا لمدلولِ التّسبيحِ (سبحان) الدّالّ على التّنزيهِ، فيكون العطفُ للتّأكيدِ بجمعِ الألفاظِ الّتي تفيدُ تنزيهَ اللهِ تعالى عن ما يجوزُ أن يلحقَهُ من أوصافٍ.

دلالةُ (ما) بين الموصوليّة والمصدريّة في: ﴿عَمَّا﴾:

السّياقُ يشيرُ إلى تنزيهِ اللهِ تعالى عمّا لا يليقُ به وبعلمِه

قولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يصحُّ في (ما) في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أن تكونَ مصدريَّةً؛ أي: عن إشراكِهمُ المُستلزِمِ لتلكَ المقالةِ الباطلةِ؛ أي: تعالى اللهُ وتنزَّهَ عن أن يكونَ ذلكَ ثابتًا له، أو أن تكونَ موصولةً؛ أي: عن شركائِهم الَّذين يعتقدونَ أنَّ لهم شُفعاءَ عندَ اللهِ تعالى يشفعونَ لهم عندَه[2].

توجيهُ قراءةِ حمزةَ والكِسائيِّ وخَلَف بالتّاءِ: (تُشْرِكونَ):

قراءةُ التّاءِ تتمّةٌ للقولِ المأمورِ به في سياقِ الآيةِ الكريمةِ

وردَ في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قراءةُ (تُشركونَ) بالتّاءِ[3]، وهي قراءةُ حمزةَ والكِسائيِّ وخَلَف، على أنَّه من جملةِ المقولِ المأمورِ به، وهي تتمَّةٌ للخطابِ الَّذي قبلَها، وهي مُستحقَّةٌ للفَصْلِ لكمالِ الانقطاعِ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126، وابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك: 1/570.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.
(3) هي قراءةُ حمزةَ والكِسّائيِّ وخلف، وقرأ الباقون منَ العشرة بالياءِ (يُشركون). يُنظر: الهمذانيّ، غاية الاختصار في قراءة العشرة أئمة الأمصار: 2/514، وابن الجزريّ، النَّشر: 2/282.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم:/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في: ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

استمرارُ المشركين على شِركِهم ضلالةٌ عنِ الصّراطِ

وردَ الفعلُ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بصيغةِ المضارع، ولم يأتِ: عمّا أشركوا؛ للدَّلالةِ على استمرارِ حالِهم، كما جاءَ يعبُدون، وإنَّهم على الشِّركِ في المستقبل، كما كانوا عليه في الماضي[1]، ويخلعُ مجيؤُه مع التّسبيحِ والتّنزيهِ على دوام ذلك التّنزيهِ لجلاله تعالى في كلِّ وقتٍ ظهرَ منهم الإشراكُ وسوءُ الاعتقاد.

بلاغةُ أسلوبِ التَّذييلِ في الآية:

المبالغةُ في تنزيهِ الله تعالى عن كلِّ نقصٍ وافتراءٍ

الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ؛ تنزيهًا له ﷻ عن إشراكِهم المُستلزِمِ لمقالتِهمُ الباطلة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، فلمّا بيَّن تعالى ما هُم عليه من سخافةِ العقولِ وركاكةِ الآراء، ختمَ ذلكَ بتنزيهِ نَفسِه بقولِه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزَّه عن كلِّ شائبةِ نَقْصٍ، تنزُّهًا لا يُحاطَ به، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ أي: وفعلَ بما له منَ الإحاطةِ بأوصافِ الكمالِ فِعْلَ المبالغِ في التّنزُّهِ. ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: يوجِدونَ الإشراكَ به[2].

التّشابهُ اللّفظيُّ بين آيات سور: يونس، والأنبياء، والفرقان:

تقديمُ ما يضرُّ وما ينفعُ أو تأخيرُه مرتبطٌ بالسّياق في السّور الثّلاث

بين قولِه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنبياء: 66]، وقولِه سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: 55]، حيث قدَّم في سورةِ يونس ما أُخِّرَ في سورة الأنبياء والفرقان، فما العلَّةُ في ذلك؟

الجوابُ عنه: أنَّ الموجبَ لتأخيرِ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في سورةِ يونس ما وصلَ به من قولِهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، فكأنَّه قد قيل: ويعبُدونَ من دونِ اللّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، ويزعُمونَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/28.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

أنَّ ذلك ينفعُهم، لم يكنْ ليناسبَ لو قيل: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، فلمّا كانَ الاتِّصالُ فيما ذكرَ أَنسبَ وردتِ الآيةُ بحسَبِ ذلكَ، فإنَّما قدَّم ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في الآيةِ الأولى؛ لأنَّ العبادةَ تُقامُ للمعبودِ خوفًا منَ العقابِ أوَّلًا، ثمَّ رجاءً للثّوابِ ثانيًا، وقد تقدَّمَ في المكانِ ما أوجبَ تقديمَ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في الآيةِ الأولى، وهو قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: 15]، فكأنَّه قال: ويعبدونَ من دونِ اللّه مالا يخافونَ ضرَرًا في معصيتِه، ولا يرجونَ نفعًا في طاعتِه، فلهذا حصَل هذا التَّقديم. أمّا آيةُ الفرقانِ فإنَّ قبلَها ذكرَ دلائلَ وشواهدَ من مصنوعاتِه تعالى يهتدي المُعتبِرُ بالنَّظرِ فيها، تخلِّصُه من وَرطاتِ الشُّكوك، ويستقيمُ له دينُه، وذلكَ أعظمُ النَّفعِ وأجلُّه، قالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إلى قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: 54]، فلمّا تقدَّمَ التَّنبيهُ بهذه الآياتِ الواضحاتِ الموقظاتِ من سِناتِ الغَفَلاتِ، والمحصِّلاتِ أعظمَ النَّفعِ في امتثالِ الواجباتِ والنَّجاةِ منَ الضَّلالاتِ، ناسبَها تقديمُ ما قُدِّمَ في الآيةِ من قولِه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾، وصارَ الكلامُ بقوَّتِه مجاوبًا لقولِه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ [النحل: 17]، ووردَ كلٌّ على ما يجبُ في هذه السّورِ الثّلاثِ، وَفقَ علمِ اللّه وحكمتِه [1] ﷺ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّرَر والأَذَى:

الضَّرَرُ والضُّرُّ: ضدُّ النَّفعِ، وهو سوءُ الحال، والضُّرُّ: ابتداءُ الفعل، وهو ما تضرُّ به صاحبَك وتنتفعُ به أنت. والضُّرُّ يكونُ من

الضَّررُ ضدُّ النَّفع، ويُعبَّرُ به عن سوءِ الحالِ، وفيه إيقاعُ الضَّررِ بغيرِ الفاعل

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/240، والإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/733 - 234.

حيث لا يعلمُ المقصودَ به، يُقال: ضرَرتُ فلانًا من حيث لا يَعلم[1].

والأَذَى: ما يصلُ إلى الإنسانِ منَ الضَّرَرِ إمّا في نَفسِه أو جِسمِه أو تَبعاتِه، دُنيويًا كانَ أم أُخرَويًّا، قالَ تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التَّوبة: 61]، و ﴿وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: 34]. يُقالُ: آذيْتُهُ أو أَذَيْتُهُ إيذاءً وأَذِيَّةً وأَذًى، ومنه الآذيُّ: وهو المَوجُ المؤذي لركّابِ البحر[2]، وبهذا يظهرُ أنّ الضّررَ أعمُّ منَ الأذى، فكان التّعبيرُ به في نفي صفةِ الضّرِّ عن آلهتهم أبلغَ في بيان ضعفِها وعجزِها.

الإنباء والإخبار:

الإنبـاء الخبرُ العظيمُ الّذي ينتُجُ عنه علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، والأصـلُ فيه الصّدقُ

النَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا بدَّ من اجتماعِ هذه الثَّلاثة حتَّى يُطلَقَ على الخبرِ نَبَأ. والنَّبأُ في هذه الحالِ لا بدَّ عن أنْ يتعرَّى عنِ الكذبِ، كالتَّواتُرِ، وخبرِ اللّه تعالى، وخبرِ رسولِه ﷺ ، قالَ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2][3]. والإخبارُ: هو إظهارُ الخبرِ، عُلِمَ به أو لم يُعلم[4]، والإخبارُ عنِ الشَّيءِ يكونُ بالزِّيادةِ في صفتِه والنُّقصانِ منها، ويكونُ الإخبارُ بخلافِ ما هو عليه كَذِبًا، فلمّا كان الإخبارُ عنِ الشّفاعةِ الّتي اتّخذوها ذريعةً للشّرك باللّه تعالى إخبارًا عن عظيمٍ، ناسبَ التّعبيرَ عنه بالإنباء.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 328 - 329، والرّاغب، المفردات: (ضرّ)، والكفويّ، الكلّيّات: 3/147.
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (أذي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ)، والرّاغب، المفردات: (نبأ).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59، والكفويّ، الكلّيّات: 1/84.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»